

٨-الصوفية:

إنه مصطلحٌ شائعٌ ينتسب إليه كثيرٌ من عامة المسلمين، وتعتبر هذه الجماعة من أكثر الجماعات انحرافاً عن العقيدة الصحيحة، ونلمس لها وجوداً بارزاً في المدن والقرى بما تحدثه من مظاهر وأمر يشاهدها العيان، فمن هم الصوفية؟

وفق الرؤية الإسلامية ليست مذهباً، وإنما هي أحد أركان الدين الثلاثة: الإسلام، والإيمان، والإحسان، فمثلما اهتم الفقه بتعاليم شريعة الإسلام، وعلم العقيدة بالإيمان، فإن التصوف اهتم بتحقيق مقام الإحسان، وهو أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، وهو منهج أو طريق يسلكه العبد للوصول إلى الله، أي الوصول إلى معرفته والعلم به، وذلك عن طريق الاجتهاد في العبادات واجتناب المنهيات، وتربية النفس وتطهير القلب من الأخلاق السيئة، وتحليلته بالأخلاق الحسنة.

وهذا المنهج كما يقولون يستمد أصوله وفروعه من القرآن والسنة النبوية واجتهاد العلماء فيما لم يرد فيه نص، فجعلوه علماً سموه بعلم التصوف، أو علم التزكية، أو علم الأخلاق، فآلفوا فيه الكتب الكثيرة، بينوا فيها أصوله وفروعه وقواعده، ومن أشهر هذه الكتب: قواعد التصوف للشيخ أحمد زروق، وإحياء علوم الدين للإمام الغزالي، والرسالة القشيرية للإمام القشيري.

وقد انتشرت حركة التصوف في العالم الإسلامي في القرن الثالث الهجري كنزعات فردية تدعو إلى الزهد وشدة العبادة، ثم تطورت تلك النزعات بعد ذلك حتى صارت طرقاً مميزة متنوعة، معروفة باسم الطرق الصوفية، والتاريخ الإسلامي زاخر بعلماء مسلمين انتسبوا للتصوف مثل: النووي، والغزالي، والعزبن عبد السلام، والقادة مثل: صلاح الدين الأيوبي، ومحمد الفاتح، وعمر المختار، وعز الدين القسام.

ونتج عن كثرة دخول الغير متعلمين والجهلة في طرق التصوف ممارسات خاطئة، عرّضها في بداية القرن الماضي لهجوم المتعلمين في الغرب باعتبارها ممثلة للثقافة الدينية التي تنشر الخرافات، ثم بدأ مع منتصف القرن الماضي الهجوم من قبل المدرسة السلفية باعتبارها بدعة دخيلة على الإسلام.

نشأتهم:

يُرجع الصوفية أصل التصوف كسلوك وتعبد وزهد في الدنيا، وإقبال على العبادات واجتناب المنهيات، ومجاهدة للنفس وكثرة لذكر الله إلى عهد رسول الإسلام محمد - صلى الله عليه وسلم - وعهد الصحابة، وأنه يستمد أصوله وفروعه من تعاليم الدين الإسلامي المستمدة من القرآن والسنة النبوية، وكوجهة نظر أخرى يرى بعض الناس أن أصل التصوف هو الرهبنة البوذية، والكهانة النصرانية، والشعوذة الهندية، فقالوا: هناك تصوف بوذي وهندي ونصراني وفارسي، بينما يرفض الصوفية المسلمون تلك النسبة، ويقولون: بأن التصوف ما هو إلا التطبيق العملي للإسلام، وأنه ليس هناك إلا التصوف الإسلامي فحسب.

طرق الصوفية:

الطريق لغة: السيرة، وطريقة الرجل: مذهبه، يقال: هو على طريقة حسنة وطريقة سيئة، واصطلاحًا: اسم لمنهج أحد العارفين في التزكية والتربية والأذكار والأوراد، أخذ بها نفسه حتى وصل إلى معرفة الله، فينسب هذا المنهج إليه ويعرف باسمه، فيقال: الطريقة الشاذلية والقادرية والرفاعية نسبة لرجالها، وقد أخذ اسم الطريقة من القرآن: "وَأَنْ لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَّاءً غَدَقًا" (١).

وتختلف الطرق التي يتبعها المشايخ في تربية طلابهم ومريديهم باختلاف مشاربهم وأذواقهم الروحية، وباختلاف البيئة الاجتماعية التي يظهرون فيها، فقد يسلك بعض المشايخ طريق الشدة في تربية المريدين، فيأخذونهم بالمجاهدات العنيفة، ومنها: كثرة الصيام والسهر وكثرة الخلوة والاعتزال عن الناس وكثرة الذكر والفكر.

وقد يسلك بعض المشايخ طريقة اللين في تربية المريدين، فيأمرونهم بممارسة شيء من الصيام وقيام مقدار من الليل وكثرة الذكر، ولكن لا يلزمونهم بالخلوة والابتعاد عن الناس إلا قليلاً، ومن المشايخ من يتخذ طريقة وسطى بين الشدة واللين في تربية المريدين، وكل هذه الأساليب لا تخرج عن كتاب الله وسنة رسوله كما يقولون، بل هي من باب الاجتهاد، ولذلك يقولون: لله طرائق بعدد أنفاس الخلائق.

وللطرق الصوفية شارات وبيارق وألوان يتميزون بها: فيتميز الرفاعية باللون الأسود، ويتميز القادرية باللون الأخضر، ويتميز الأحمديّة باللون الأحمر، أما البرهانية فإنها لا تتميز بلون واحد كسائر الطرق بل تتميز بثلاث ألوان: الأبيض الذي تميز به إبراهيم الدسوقي، والأصفر الذي تميز به أبو الحسن الشاذلي ومنحه لابن أخته إبراهيم الدسوقي، والأخضر وهو كناية عن شرف الانتساب لأهل بيت رسول الإسلام محمد علي الصلاة والسلام.

١ - سورة الجن آية (١٦) .

ومن أهم الطرق الصوفية المنتشرة في العالم الإسلامي:

اسم الطريقة	نسبتها	تاريخ الوفاة	أماكن الانتشار
الطريقة القادرية	الشيخ عبدالقادر الجيلاني	٥٦١هـ	العراق ومصر وشرق أفريقيا
الطريقة السعدية	الشيخ سعدالدين الجبائي	٥٧٥هـ	بلاد الشام
الطريقة الرفاعية	الشيخ أحمد بن علي الرفاعي	٥٧٨هـ	العراق ومصر وغرب آسيا
الطريقة الأحمدية أو البدوية	الشيخ أحمد البدوي	٦٢٧هـ	مصر
الطريقة الأكبرية	الشيخ محي الدين بن عربي الملقب بالشيخ الأكبر	٦٣٨هـ	مصر
طريقة السادة آل باعلوي	الشيخ محمد بن علي باعلوي	٦٥٣هـ	اليمن وأندونيسيا وشرق آسيا والحجاز
الطريقة الشاذلية	الشيخ أبو الحسن الشاذلي	٦٥٦هـ	مصر والسودان والمغرب العربي واليمن وسوريا والأردن

الطريقة البرهانية الدسوقية	الشيخ إبراهيم الدسوقي	٦٧٦هـ	مصر والسودان
الطريقة النقشبندية	الشيخ محمد بهاء الدين شاه نقشبندي	٧٩١هـ	آسيا الوسطى وسوريا
الطريقة العروسية	الشيخ أحمد بن عروس	٨٦٩هـ	ليبيا
الطريقة العيساوية	الشيخ محمد بن عيسى	٩٣٣هـ	المغرب
الطريقة الخلوتية	الشيخ محمد بن أحمد بن محمد كريم الدين الخلوتي	٩٨٦هـ	مصر وتركيا وفلسطين والأردن
الطريقة السمانية	الشيخ محمد بن عبد الكريم السمان	١١٨٩هـ	السودان
الطريقة التيجانية	الشيخ أبو العباس أحمد التيجاني	١٢٣٠هـ	المغرب والسنغال وغرب أفريقيا
الطريقة الإدريسية	الشيخ أحمد بن إدريس الفاسي	١٢٥٣هـ	السودان والصومال
الطريقة المولوية	الشيخ جلال الدين الرومي	١٢٧٢هـ	تركيا وحلب
الطريقة الختمية	الشيخ محمد عثمان الميرغني الختم	١٢٦٧هـ	السودان وأريتريا وأثيوبيا

ليبيا وشمال أفريقيا والسودان والصومال	١٢٧٦ هـ	الشيخ محمد بن علي السنوسي	الطريقة السنوسية
العراق	١٣١٧ هـ	الشيخ عبد الكريم شاه الكسنزان	الطريقة الكسنزانية
الجزائر	١٣٥٣ هـ	الشيخ أحمد مصطفى العلاوي	الطريقة العلاوية
المغرب وفرنسا وأندونيسيا وباكستان	١٣٩٦ هـ	الشيخ محمد فوزي الكركري	الطريقة المحمدية الفوزوية الكركرية
المغرب والسنغال وغرب أفريقيا	١٣٩٩ هـ	الشيخ صالح الجعفري الحسيني إمام الأزهر	الطريقة الجعفرية
المغرب		سيدي علي بن محمد الملقب بسيدي علي بودشيش	الطريقة القادرية البودشيشية

أما عن منهجهم العلمي فيرى الصوفية أنهم لا يكتفون بأن يوضحوا للناس أحكام الشرع وآدابه بمجرد الكلام النظري، ولكنهم بالإضافة إلى ذلك يأخذون بيد تلميذهم ويسيروا به في مدارج الترقى، ويرافقونه في جميع مراحل سيره إلى الله، يحيطونه برعايتهم وعنايتهم، ويوجهونه بحالهم وقولهم، يذكرونه إذا نسي، ويقومونه إذا انحرف، ويتفقدونه إذا غاب، وينشطونه إذا فتر، وهكذا يرسمون له المنهج العملي الذي يمكنه أن يتحقق بأركان الدين الثلاثة: الإسلام والإيمان والإحسان، ومن أهم الطرق العملية التي يطبقها رجال التصوف للوصول إلى رضا الله ومعرفته: العلم والصحة ومجاهدة النفس وذكر الله والخلوة.

وليس المجال هنا للحديث عن كل هذه الطرق فهم متشابهون ولا أرى إفادة في شرح كل طريقة منهم فيكفي الإشارة إليهم.

عقيدتهم:

يعلن المتصوفة حالياً اعتقادهم حسب مبادئ عقيدة أهل السنة الأشاعرة التي انتشرت وسادت كمذهب عقيدي رسمي لأهل السنة والجماعة، بل وتبناها جمهور علماء أهل السنة والجماعة من الإمام النووي، والإمام ابن حجر العسقلاني، والإمام السيوطي، وغيرهم الكثير، فبالتالي فإن كتب المتصوفة الحديثة لا تخرج عن عقيدة أهل السنة سواءً أكانت أشعرية أو ماتريدية، وذلك بالرغم أنهم يتبنون كتب ابن عربي والسهروardi التي تتهم من قبل الحركات السلفية وبعض الباحثين المعاصرين بأنها تتضمن ما يفيد بعقائد الحلول ووحدانية الوجود، لكن المتصوفة يقولون: إن هذه الكتب ليست في متناول العوام، والعوام في نظر المتصوفة هو كل من لم يتمرس بالصوفية وممارساتها، وأنه بالإمكان حمل كلام ابن عربي والسهروardi على محامل نابعة من الإسلام، فالعوام غير قادرين على تذوق المعاني التي لا تتجلى إلا لمن حصل على الكشف الإلهي، بالتالي فهم

وحدهم من يمتلك حق التأويل لهذه الكتب والمقولات للشيخ الكبار مثل ابن عربي والسهورودي.

ويرى الشيخ المسافر أن ابن عربي والسهورودي وابن سبعين فضلاً عن جلال مسيرتهم في التصوف، ينتمون إلى ميدان الحكمة الفلسفية، وأن كثيراً من كتبهم فلسفية بامتياز، وإن لم تسم بذلك، ويشهد على ذلك إنتاج ذلك العدد الكبير من فلاسفة الغرب الذين أسسوا أطروحاتهم الفلسفية أو ضمنوها أجزاء من إنتاج المشايخ الأولياء الثلاثة، أو كما يطلق عليهم البعض (الفلاسفة العظام الثلاثة).

معتقدات وأفكار أخرى:

الكشف: هو نور يحصل للسالكين في سيرهم إلى الله؛ يكشف لهم حجاب الحس، ويزيل دونهم أسباب المادة نتيجة لما يأخذون به أنفسهم من مجاهدة وخلوة وذكر.

الفراسة: والتي تختص بمعرفة خواطر النفوس وأحاديثها، يقول ابن عجيبة: الفراسة هي خاطريهجم على القلب، أو وارد يتجلى فيه، لا يخطئ غالباً إذا صفا القلب، وفي الحديث: (اتقوا فراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور الله)، وهي على حسب قوة القرب والمعرفة، فكلما قوي القرب، وتمكنت المعرفة صدقت الفراسة، لأن الروح إذا قربت من حضرة الحق لا يتجلى فيها غالباً إلا الحق.

الإلهام: وهو ما يُلقَى في الرُّوح بطريق الفيض، وقيل: الإلهام ما وقع في القلب من علم، وهو يدعو إلى العمل من غير استدلال بآية، ولا نظر في حجة، والإلهام عندهم إما أن يكون من قِبَلِ الله، أو من قبل ملائكته، يُفهم منه أمر أو نهي، أو ترغيب أو ترهيب.

العلم اللدني: ويتحدث عنه الصوفية والذي يكون في نظرهم لأهل النبوة والولاية، كما كان ذلك للخضر، حيث ورد ذلك في الآية القرآنية: "وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا"^(١)

النبي محمد صلى الله عليه وسلم: ويعتقدون بالأخذ عنه يقظةً ومناماً. ويعتقدون بأنه باب الله ووسيلته العظمى إليه، وأنه بشر ولكن ليس كالبشر، ويعتقدون أن محبته شرط في الطريق، لذلك يكثر من ذكره ومن الصلاة عليه، ومن مديحه وإنشاد الشعر فيه، ولهذه الأمور يكثر من إقامة الموالد، والذي يقومون فيه بالإنشاد والوعظ والتحدث في سيرته وشمائله، ولا يجيزون فيه الاختلاط ولا باقي المحرمات.

الشيخ المربي: لابد في التصوف من التأثير الروحي، والذي يأتي بواسطة الشيخ الذي أخذ الطريقة عن شيخه حتى تصل سلسلة التلقي في سند متصل من الشيخ إلى الرسول محمد بن عبد الله، فيقولون: من لا شيخ له فشيخه الشيطان!

البيعة: يبايع فيه المريد المرشد، ويعاهده على السير معه في طريق التخلي عن العيوب، والتحلي بالصفات الحسنة، والتحقيق بركن الإحسان، والترقي في مقاماته، وهو بمثابة الوعد والعهد.

التبرك: وهو طلب البركة من الله، والتوسل إليه بذلك المتبرك به، سواء أكان أثراً أم مكاناً أم شخصاً، وهذه البركة كما يعتقدون تُطلب بالتعرض لها في أماكنها بالتوجه إلى الله ودعائه، ويستدلون بالقصص الكثير الوارد بتبرك الصحابة بالنبي محمد شعره وعرقه ودمه وموضع صلاته.

التوسل: هو أحد طرق الدعاء، وباب من أبواب التوجه إلى الله، والمتوسل به إنما هو واسطة ووسيلة للتقرب إلى الله، والتوسل حسب اعتقادهم يكون بالأنبياء أو الأولياء، أو

^١ - سورة الكهف آية (٦٥) .

يكون بالأعمال الصالحة للإنسان، وأعظم هذه الوسائل عندهم هو النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

القبور: اعتنى الصوفية بقبور الأنبياء والصالحين والأولياء، فشيدوا حولها المساجد، وبنوا عليها القباب، وذلك حفاظاً عليها من الاندثار، وضياع هذه المعالم، وأصبحوا يقصدونها طلباً للبركة، وطلباً لاستجابة الدعاء من الله عندها، ويرون أنهم بذلك متبعون لأئمة السنة، حيث يقولون: بأنه وردت نصوص من هؤلاء الأئمة على جواز البناء على قبور الصالحين والأولياء، وجواز قصدها للتبرك.

الصوفية في ميزان النقد:

إن رؤيتي للأشياء لا تكون من حيث الكلام لكن من حيث التطبيق على أرض الواقع، وما أراه بحسب رؤيتي الخاصة أنّ الصوفية قد انحرفت عن العقيدة الصحيحة انحرافاً واضحاً، فهي لا تختلف كثيراً عن الشيعة، وما يحدثونه من بدع وأشياء تختلف كل الاختلاف مع السنة النبوية الصحيحة، فالإسلام واضح، ومعرفة الله واضحة، والطريق إليه واضح، وليس الأمر محتاجاً إلى تعقيد أو نظريات فلسفية غامضة يختص بها البعض دون الآخر.

مع الأسف الشديد أن ما نراه عند الصوفية من طقوس وأشياء في الاحتفاء بالأولياء أمر في غاية الغرابة، لا يقبله عقل أو دين، ناهيك عن استغلال البعض لتلك الأضرحة من أجل التكسب بالمال، أو الترويج لسياسة ما، كما حدث عند مسجد الحسين من الصوفية والشيعة حينما أرادوا أن يلطموا الوجوه، ويشقوا الرؤوس في يوم عاشوراء، وكأنهم يريدون أن تعود مصر للعهد الفاطمي الغير مأسوف عليه.

أضف إلى ذلك تلك القداسة المبالغ فيها التي يخلعونها على ما يسمونهم بالأولياء كالسيد البدوي والدسوقي وغيرهما ممن لا نعلم لهم تاريخاً ثابتاً أو علماً انتفع به الإسلام، وإنما هي قصص وأساطير وخرافات رويت عنهم حتى يبرروا ما يصنعون، وتجدر الإشارة إلى أمر آخر وهو أنهم قد أهملوا مفهوم العمل، وتناسوا أن العمل عبادة، وتفرغوا إلى ما يدعون أنه زهد في الدنيا، وكأنهم نسوا قول الله تعالى: " وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ " (١)، وفي نهاية القول لا يوجد بين الله والعبد حائل، فليس العبد بحاجة للتوسل بهؤلاء.

١ - سورة القصص آية (٧٧) .